آخرها قصة الايقونة والراهب الذي ابتاعها من اورشليم. فتطلّبتُ عنوان الكتاب لاعلم مَن مؤلفهُ وتاريخ تأليفهِ فلم ارَ لهُ مقدّمة يمكن ان يُستفاد منها شيء. فنظرتُ في خاتمتهِ فاذا هو من نسخ « الحاجّة تقلا غزال ». فقلتُ للراهبة التي اتتني بهِ: أليس عندكم الاصل الذي أُخذت عنهُ هذه النسخة. فقالت: هذه النسخة هي طبق الاصل تماماً. فقلت لها: ولكن للاصل قيمة ليست لهذه النسخة ولو اتيتني بهـا لاستدللت من النظر في بعض حواشيها او من مطالعة الكتابة الملحقة بذيلها على زمن تأليفها او اسم مؤلفها ومكانه لان معرفة هذه الامور ضروريّة لتقويم الكتاب وتعيين القـدر الذي يمكن ان يُركن اليهِ في قبول روايتهِ. ولو ناقشكم غداً غريب في صحّة تاريخ هذه الايقونة وقِدَمها فبمَ تحجُرونه أبشهادة هذه النسخة الحديثة ولا شيء يثبت لهُ سلامتهـا من التحريف والتصحيف لاسيما مع خلوّها من ذكر المؤلف وزمن التأليف. فقالت: ان الاصل ليس عندنا ولكن اخذهُ بعض الزوار ... فخرجتُ عنـد ذلك وفي قلبي من الحسرة على ذهاب تلك الاسفار اضعاف ما أشعل فيها من النار

شهيد العلم

بقلم محمّد ابي عزّ الدين كاتب ضبط دائرة الحقوق الاستئنافية في جبل لبنان (تابع لما سبق)

ثم قام الدكتور مولّر عن كرسيّهِ مرتّحاً بما اعتراهُ من وهن القوى وتقدم الى المرآة المعلّقة على الحائط ونظر فيها فاذا وجههُ اصفر وهيئتهُ تدلّ على سوء حالهِ وحينئذٍ نطق بهذه الكلمات: « يا والدي ووالدتي الحقّ اقول ان صحّـة ولدكما ليست على ما يرام ». ثم تناول مقياس الحرارة الكليفيكي وقاس درجة حرارته فاذا هي ٣٧°٥ بمقياس سنتيكراد فسكن عندئذٍ روعهُ وقال: « توهمتُ اني مصاب بالطاعون ولا حمّى في جسمي »

ثم اضطجع في سريرهِ ونام نوماً لم يذُقْ فيهِ طعم الراحة ولمّا استيقظ في النهار التالي وجد صحّتهُ اسوأ مما كانت في الليلة السابقة واصابهُ صرع هو في الشدة غاية واذ نهض من سريرهِ تمايل كالشارب الثمِل وزاد عدد نبضاتهِ وارتفعت درجة حرارته حتى بلغت ٣٨°١ فشرع وقتئذٍ يتحرّى ما المَّ بهِ متأنياً مستبصراً كأنهُ يفحص جماداً بالمجهر « الكرسكوب » وبعد التحرّي استنتج انهُ مصاب بالطاعون ومع ان بعض أعراضهِ لم

تكن ظاهرة فيهِ بعد ولا يمكن بدون ظهورها الجزم بهِ فقد ترجّح عنـدهُ انهُ ذاك المرض المشؤوم او القضاء المحتوم وبعد ما اتمَّ التشخيص لبس ثوبهُ وهو على ما علمتَ من ضعفهِ وبحكم ارادتهِ انطلق الى غرفة « بيخا » ووصل اليها بعد العناء واخذ المطعون يعالج المطعونة . فوصف لها علاجاً يقوّي حركة قلبها ومكث عندها ساعة يهتمّ بها غير ملتفتٍ ولو لحظة الى ما هو عليهِ . ثم ما لبث ان خانتهُ قواهُ وانهكهُ المرض ففارقهـا مكرهاً وبالرغم عن غيرتهِ وتفانيهِ في المداومة على وفاء واجبٍ كان يسرّهُ وفاؤهُ سروراً لا مزيد عليهِ

ولمَّا انتهى الى غرفتهِ اهتمَّ اولاً بكتابة تقرير يقدّمـهُ لمدير المستشفى واصفاً بهِ حالة الفتاة المذكورة وعاد بعدئذٍ الى فحص ذاتهِ فانجلى لهُ كطبيبٍ وعالمٍ حقائق بهـا حقَّق انهُ مصاب بالطاعون وانهُ اشفى على الموت ومع جلاء هـذه الحقيقة لم يرهب الردى ولم يبالِ بانصرام الاجل بل تناول ورقة وكتب عليها ما يأتي :

« بما اني مصاب بالتهـاب الرئة الطاعونيَّة ارجو الّا ترسلوا اليَّ طبيباً لاني في مطلق الاحوال ملاقٍ حتفي بعد اربعة او خمسة ايام »

ولصق هذه الورقة على زجاج الشباك وليتصوّر القارئ مقدار الجزع الذي عرا طبيبَ المستشفى اذ قرأ على حـين غرّةٍ ذلك الحكم حكم الموت الذي حكم بهِ الدكتور موآر على ذاتهِ

وحالما فرغ الدكتور موآر من تشخيصـهِ الآنف ذكرهُ حسب نفسهُ موضوعاً للدرس وواظب بتمام التأنّي والرصانة وبكمال التـدقيق العلمي على درس هذا المرض وكيفية ابتدائهِ وماهيَّة سيرهِ واستدراجهِ مستفتياً بخبرة وافية اكتسبها في بحاري وبقي الى آخر ساعة من حياتهِ صارفاً افكاره الى ترقية العلم مستقرئاً حالتـهُ في كل ربع ساعة فاحصاً مدقّقاً مدوّناً ملاحظات اختباره بجسمهِ معيّناً الموضع الذي احسَّ بالالم فيهِ اولاً مداوماً قياس الحرارة وعدّ التنفّس والنبضات مبيّناً كيفيَّة سير الحمى وبالجملة قد كتب بعبارة موجزة مفيدة كلَّ ملاحظة ارتأى ان لا بدَّ منها لمعرفة هذا المرض وشرح في خلالها حادثة باريش المذكور من بدايتها حتى نهايتها

وكان يكتب نتيجة اختباره العلمي بجسمهِ على اوراق صغيرة يلصقها على الشباك ولم ينفك عن ذلك الّا بعد ان وهنت قوّته وعجز عن الكتابة . وهذا تفـانٍ ما سُمع

شبيهةٌ وما روى مثيلهُ الرواة وما ابتدع ظيرهُ القصّاصون

ثم اشتدت عليهِ وطأة المرض حتى اضطُرَّ الى ملازمة الفراش وقويت عليهِ الحمى حتى لم يستطع تدوين ملاحظاتهِ فالتمس بعدئذٍ من الراهبة القائمة على خدمتهِ ان تكتب ما لقّنها اياهُ بلسان متلجلج من التأملات والدقائق العلميّة متوخياً بذلك خدمة غيرهِ من الاطباء الذين يُعنَون بعدهُ بدرس هذا المرض ولم تفتر همّتهُ ولا التمس الراحة قطّ بل انتهز كل فرصة لتدوين ملاحظاتهِ. وكان اذا نابتهُ نوبة حالت دون مرامهِ ترقّب زوالها وعاد بعدهُ الى اثبات ما رآهُ واختبرهُ وما انفكَّ عن ذلك حتى النزاع الاخير ولم يرهب الموت بل لاقاهُ غير جازع منهُ

اما عن رقة عواطفهِ وحبهِ الغير واهتمامه بعمل الخير فحدّث ولا حرج ومن الدلائل الساطعة على خلالهِ الطيّبة انهُ الحَّ اشدّ الالحاح على الدكتور بوخ (Dr. Rudolph Poech) بالامتناع عن دخول غرفتهِ. والدكتور بوخ هذا طبيب في مقتبل عمرهِ وهو احد اعضاء البعثة النمسويّة المقدم ذكرها وخاطبهُ بهذا الصدد قائلاً: « لا ارى في ذلك مصلحة ما ولا رجاء بالشفاء ولهذا لا ارضى ان تعرّض نفسك للخطر من اجلي »

ومنها انهُ كان عند السعال يدور ملتفتاً الى الحائط متحولاً عن الراهبة الممرّضة ثم يسعل ويتفّ في خرقة صوف وقطن مبلولة بالكربول و يلفُّها بخرقة اخرى ناشفة قبل ان يناولها اياها لتحرقها

ومما يدل ايضاً على كرم سجيّتهِ قولهُ للدكتور بوخ: « ان جراثيم الطاعون لا تتلاشى ولا تضمحلّ الّا بالنار وارى ان تحرقوا جثّتي حذراً من ان تكون سبباً لتفشي هذا المرض المخيف ». ولم يقتصر على هذا الخطاب الشفاهي بل استكتب ممرّضتهُ كتاب وداع بعث بهِ الى والديهِ وفيهِ صرّح لهما برايهِ هذا. وهذه الممرّضة قرأت مكتوبهُ والشباك مغلق على مسمع من راهبة اخرى كانت واقفة في صحن الدار وتلك كتبته وهو آخر مكاتيبه ومنهُ يتّضح صفاء ذهنهِ وكمال تأهُّبهِ لآخرتهِ وبهِ يُعرف ثبات جنانهِ عند حلول اجلهِ . وهذا نص كتابهِ المرويّ عنهُ :

ڤينة في ٢١ تشرين الاوّل سنة ١٨٩٨

سيديَّ الوالدين العزيزين

« لا ريب في اني مصاب بالطاعون واوكد ان الموت واقع لا محالة بعد ساعات قليلة . وقد رأيت اوّل واجب عليّ يا والديّ العزيزين ان استودعكما اذ لم يبق لي رجاء لمشاهدتكما في هذه الدنيا راجياً ان تصفحا عني بما سببتهُ لكما من الاكدار وان تبقى وصيّتي التي كتبتها قبل سفري الى بمباي جارية على حكمها

وحذراً من ان يتعرّض احد للخطر بسببي ارجو ان تُحرَق جثّتي على عرمة حطب ويجمع رمادها وبعد تطهيرهِ يدفن بجانب مدفن جدّتي لامي . واختم كتابي باثم ايديكما ولدكما المحب هرمان

ويلي هذا الكتاب حاشيةٌ بيّن فيها اشياء خاصّة بهِ معلناً محلّ وجودها وكيفيّة التصرُّف الواجب بها

ولمّا اكمل تلقين كتابهِ هذا على الراهبة اوصاها بان تبقي الصورة الاصليّة في الغرفة وحرّضها كلّ التحريض بان لا تتسامح باخراجها منها باي سبب كان على وجه الاطلاق . وممّا قالهُ لها انهُ يفضّل ان لا ترسل كلمات الوداع هذه الى والديهِ على ان ترسل اليهما وتكون ذريعة لنقل العدوى الى غيرهِ الى ان قال : « ولو علمتُ قبل موتي ان العدوى سرت منّي الى احد لمّا فاضت روحي بسلام »

ثم رسم للراهبة الطريقة التي ينبغي ان ترسل بها تلك الرسالة فوعدتهُ باتباع ما رسمهُ من هذا القبيل فشكر لها شكراً جزيلاً

وكان على الدوام يستطلع احوال « ألبين بيخا » ويسأل الدكتور برخ عمّا اذا كان احد أُصيب بالطاعون في ڤينة وبرخ كان يجاوبهُ نافياً وجود اثر الوباء في العاصمة فيبتهج بهذا الجواب ويطرب . ولم يكن ليكتم اعراض مرضهِ عن الدكتور برخ بل كان يوضحها تمامًا مع بيان ما يحسّ بهِ متأنّياً في البيان . وكانا اذا اجتمعا كأنهما طبيبان يتشاوران ويتحاوران بحادثة مفيدة ذات شأن تتعلق بشخص ثالث ولم يسمع من موكّر ادنى شكوى في مدة مرضهِ

اخيرًا اشتدّ مرضهُ واستعجل سيره وارتفعت درجة الحمّى بوقت قصير وامست حالتهُ اشد خطرًا من حالة المرّضة « بيخا » وبعد مضي بضع ساعات على اضجاعهِ في سريره بلغت الحمى ٦ ، ٤٠ بمقياس سنتيغراد ثم سعل وخرج مع سعالهِ كميّة وافرة من الدم

وبعد هذا طلب الدكتور موكر ان يتزوّد الاسرار الاخيرة فجاء قسيس المستشفى ووقف مقابل شباك غرفته على مسافة اذ لم يؤذن لهُ بدخولها واتمّ من ثمّ الواجبات الدينيّة لذاك المحتضر بمشهدٍ كان عنوان الخشوع. ولمّا وصل القسيس قعد المريض في سريره وصلّى ثم قال بصوتٍ عالٍ سمعوه خارجاً: « اتوب نادماً على كل خطاياي ». وجثت الراهبة ممرّضته على ركبتيها بجانب سريره وصلّت لاجلهِ صلاة حارّة. ثم ان القسيس حلّ الدكتور موكر ولفّ القربان بمنديل غُطي الكأس بهِ وفتحت الشباك واخذتهُ وقدّمته للمريض فتناولهُ ووضعهُ في فمهِ بكمال الخشوع والتوقير ثم فاضت روحهُ. وكانت مدّة مرضه يومين فقط

وبعد ما تحقق الدكتور بوخ ان صديقهُ الصدوق ورفيقهُ الباسل مات رأى من واجباتهِ ان يتولّى تكفينهُ كما تولّى المتوفّى تكفين باريش الذي التقط العدوى منهُ على الارجح. وقد باشر الدكتور بوخ بمعاونة الراهبتين تكفينهُ متحوطين قدر استطاعتهم

وفي صباح اليوم التالي قبل بزوغ الشمس خرجوا من مستشفى فرنسيس يوسف برُفات موكر موضوعة في نعش بسيط وساروا بها الى المقبرة الكبرى في ڤينة ودفنوها في الزاوية القصوى بالمقبرة الوسطى ولم يحضر دفنهُ سوى اخوتهِ وبعض خلّانه الذين انبثوا بميقات الدفن. ولمّا وصلوا بالنعش الى المدفن دفنوهُ فيهِ ولم يؤذن لاحد بالدنو من قبرهِ حتى ان الكاهن الذي صلّى على الجثة اوجبوا عليهِ ان يكون على بُعد عشرين خطوة منها. ومع هذه الظروف الخارقة العادة تمّت صلاة الدفن محفوفة بالوقار والخشوع وكانت بعض الفاظها الشجيّة تثير اشجان اقاربهِ وخلّانهِ فتتصاعد زفراتهم وتتوالى حسراتهم

اخيرًا انتصب الاستاذ الدكتور ثون فرانكل وألقى تأبينًا مستجادًا ختمهُ بهذه الكلمات: « انّك وان قصرتْ مدّة عملك فحياتك كانت كاملة وهي عبارة عن نشيد نتغنّى فيهِ بمجيّتين من اسمى السجايا ألا وهما امانتك في اتمام الواجبات وشجاعتك الادبيّة ولم تكن حياتك لتنقضي بالباطل ما دام اسمك قد كتب مع اسماء شهداء العلم »

وقد عمّ بموتهِ الاسفُ سكّان ڤينّة واشتركوا بالحداد على هذا الطبيب الشاب الباسل وعند ما اقترحوا إقامة تمثال لهُ يُنصب مع تماثيل غيرهِ من العظماء في باحة

الكلية الطبية بمدرسة قينة انهالت الاكتابات من كل صوب

وبعد موت الدكتور مولر باسبوع واحد ماتت الممرضة بيخا ولم يتعدَّ هذا المرض الى غيرها. اما الدكتور بوخ والراهبتان الذين أدّوا الامانة مخلصين في خدمتهم بالمأوى المذكور فلم يطرأ على صحتهم ما يشوّشها بل بقيت صحيحة سالمة وكافأهم جلالة الامبراطور فرنسيس يوسف بمنحهم وسامات جديرة باخلاصهم وامانتهم. انتهى

هذه طرفة من تاريخ ذاك النطاسي المحمود الاثر يراها القارئ حاوية مثال الآداب الكاملة متبطنة العواطف النبيلة والفوائد الجليلة متضمنة من شواهد المروّة والشهامة والتفاني في خدمة العلم والبشرية الى غير ذلك من الفضائل السامية ما ليس وراءهُ زيادة لمستزيد. وأخلق بالنسويين ان يفاخروا ويفتخروا به كما افتخر الفرنسويون بباستورهم واحرِ بهم ان ينصبوا لهُ تمثالًا بديعًا يخلّد ذكرهُ الطيب الى ما شاء الله

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

٨ معراب

معراب مزدعةٌ على عطف الجبل بين دلبتا وعين ورقة تبعد نحو كيلومتر ونصف من عين ورقة في شرقيها بجهة ريفون. فيها آثار ماثلة يعرفها اهل تلك الضواحي بقلعة معراب او يدعونها بمطلق اسم القلعة. والارجح ان هذه الاخربة احدُ الهياكل العديدة التي ابتناها ارباب الدين القديم على مشارف لبنان تعزيزًا لديانتهم. وهو بنعم الموقع يمتدّ منهُ البصر جنوبًا الى بيروت ومجرها اللازوردي وشمالًا الى جبيل وبطائحها الخضراء. والآثار الباقية عبارة عن حيطان ضخمة الحجارة طولها ٢٥ مترًا في ١٠ امتار عرضًا و٦ امتار علوًّا. وقد قيست بعض الحجارة فاذا طولها يبلغ خمسة امتار بنيّف في عرض مترين. وفي البناية حجاة متّسعة محفورة في الصخر ذات حافّة ينفذ فيها سقايةٌ لعلّها جُعلت قديمًا لتجري فيها دماء الذبائح وأسكاب التقادُم. وهذه غاية ما نعلمهُ عن هذه البناية التي أعلن اوّلًا امرَها اليسوعيّون في غزير فأرشدوا اليها ريفان ايّام سياحتهِ